كلمة الأستاذ الدكتور موفق دعبول(*)

السيد الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية:

السادة أعضاء المجمع:

السادة الحضور:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أشكر لكم حضوركم للمشاركة في هذا الاحتفال بيوم لغة الأم ويوم اللغة العربية. يهدف هذا الاحتفال، كما يهدف غيره من الاحتفالات الأخرى بمناسبات مختلفة، إلى تأكيد أهمية المعاني والقيم والأهداف التي جاءت المناسبة من أجلها.

أيها الحضور الكرام:

في الحادي والعشرين من شهر شباط عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين تظاهر آلاف الطلبة البنغاليين (من بنغلادش) مطالبين بحقِّ التعليم باللغة البنغالية (لغة الأم لهم) وعدم إجبارهم على التعلم باللغة الأوردية لغة باكستان، فأطلقت قوى الأمن الباكستانية النار على المتظاهرين وقتلت أعداداً كبيرة منهم.

وبعد استقلال بنغلاديش عن باكستان أعلنت الحكومة البنغالية الحادي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

والعشرين من شهر شباط كل عام عيداً لشهداء اللغة الأم. وقدمت بنغلاديش اقتراحاً في عام ١٩٧٩ لمنظمة اليونسكو تطلب فيه اعتبار الحادي والعشرين من شهر شباط عيداً للغة الأم. وافقت اليونسكو على الاقتراح، وكان أول احتفال بهذا العيد عام ٢٠٠٠.

وإضافة إلى ذلك كانت منظمة اليونسكو قد حددت العام ٢٠٠٨ عاماً دوليًّا للغات بعد أن لاحظت أن ٥٠٪ من اللغات في العالم، والبالغ عددها سبعة آلاف لغة، معرضة للزوال، وأشارت إلى أن ٣٠٠ لغة انقرضت في القرن العشرين.

ومن اللافت للانتباه أن يرد في تقرير لليونسكو أن اللغة العربية هي واحدة من اللغات المرشحة للاندثار، كما جاء في تقرير اليونسكو.

ولعل اليونسكو في دعواها هذه قد لاحظت بعض المؤشرات والسلبيات في لغة التواصل بين أبناء العربية دون أن تضع في حسبانها العوامل الحقيقية لبقاء لغة أو اندثارها.

لقد اكتفت اليونسكو بالوقوف عند ظاهر اللغة، من حيث إنها أصوات للتعبير عن الحاجات. لقد غفلت عن تاريخ العربية وغناها وقدرتها، كما غفلت عن الصلة القوية بين العربية وأبنائها والناطقين بها. لاحظ هذه الصلة عالم إسباني يحمل جائزة نوبل، إذ بيّن ببحوثه ودراساته أن أربع لغات في العالم مرشحة للبقاء دون سواها... واللغةُ العربية واحدةٌ منها.

وأرى من المناسب أن أذكر هنا الدور الكبير للقرآن الكريم في حفظ اللغة العربية..

فمن الجانب القومي نذكر مثلاً ما نبّه عليه المؤرخ نقولا زيادة حيث قال:

«علينا أن نتقن لغتنا، وإتقان هذه اللغة يقضي بأن يُقبِل كل واحد منا

على القرآن الكريم فيفهَمَه فهماً صحيحاً. أما المسلم فله عن ذلك أجره عند ربه. وأما الباقون فلهم على ذلك أجرهم عند نفوسهم وعند أبنائهم، الذين يُربونهم عندئذ تربية عربية خالصة».

وما نبّه إليه الشاعر القروي رشيد سليم الخوري إذ يقول: «علّموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في مدارسكم وجامعاتكم لكي تبقى العربية الفصيحة دائرة على ألسنة العرب».

وأما على المستوى العالمي، فإن المسلمين في أنحاء العالم يهتمون باللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

تُرى لماذا الاهتمام بلغة الأم؟..

تتعرض اللغات من جرّاء العولمة لتهديد متزايد وللاندثار الكلي، وذلك لحساب اللغات المسيطرة على شبكات الاتصال كاللغة الإنكليزية. وإلى جانب انقراض اللغات وسيطرة عدد قليل من اللغات، إن الثقافات كذلك تتعرض للانقراض لتسود ثقافة الغالب، ومما لا شك فيه أن اللغات تعدّ من المقومات الجوهرية للهوية، وركيزة أساسية في الاتصال والاندماج الاجتماعيَّيْن والتعليم والتنمية، وهذا يؤدي إلى القضاء على الأنماط الفريدة في التفكير والتعبير، وإلى بتر الصلة بين واقع الشعوب وماضيها، كما يؤدي إلى غياب التنوع والتعدد، مما يؤدي إلى سيادة نمط لغوي ثقافي واحد... وتتجه الحياة على الأرض لتكون كئيبة: إن التجربة التركية في الاستغناء عن الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به، أدت إلى صعوبات بالغة في اتصال حاضر الأتراك بماضيهم.

لنتصور أن التعددية غابت عن تنوع الطعام الذي نتناوله، وعن الثياب التي نلبسها، وعن التنوع العمراني الذي يَبهرنا وعن طرائقنا في الحديث

والتواصل مع الآخر... لنغدو بعد ذلك نسخاً مكررة... إن هذا لعمري يحتاج إلى إعادة صياغة سكان هذه المعمورة، ليكونوا نسخاً مكررة بدلاً من التعددية في هيئات وصفات من يعمر الأرض هذه الأيام.

إن التحول من اللغة الأم إلى لغة أخرى هو اعتداء صارخ على تاريخ الأمة وعلى تراثها.. هي حكم بالإعدام على ذاكرة الأمة، وهل يمكن لأمة أن تكون دون ذاكرة؟

إن الاهتمام باللغة الأم، لا يعني أبداً إهمال لغة الأم، إننا نجد في غالب البلدان أقليات قومية، تحرص على لغتها الأصلية. فالأم الشركسية مثلاً تحرص على تعليم أبنائها اللغة الشركسية، فهي لغة أُمِّهم.. أما اللغة الأم في العالم العربي فهي اللغة العربية. هي إذن اللغة الموحدة على مستوى الأمة، فهي اللغة الرسمية ولغة التدريس ولغة التعامل.

وقد أشرت قبل قليل إلى أثر العولمة الاقتصادي والثقافي والسياسي واللغوي الذي يؤدي إلى جعل العالم في قبضة دول عظمى قليلة. ولكن دول العالم جميعها، وبخاصة دول العالم الفقيرة والمتخلفة، تَنبَّهَت للمخاطر التي تنتظرها، وبدأت تتخذ الإجراءات المناسبة لحماية ذاتها.

ونورد مثلاً على ذلك حال اللغة العربية في الشابكة.

أولاً: فيما يخص عدد مستعملي اللغة العربية على الشابكة، لقد بيَّنت الإحصاءات وفقاً لموقع (Internetworldstates) أن اللغة العربية بتاريخ ٣١ كانون الأول ٢٠١٧ هي رابع لغة من حيث عدد المستعملين تسبقها اللغات الإنكليزية والصينية والإسبانية. ونسبة مستعملي اللغة العربية ٩ , ٤٪ من العدد الكلي لمستعملي الشابكة.

ثانياً: أما ما يتعلق بالمحتوى العربي فإن نسبة المواقع التي تكتب

بالعربية من بين مجموعة المواقع هي سبعة بالألف، وبذلك يحتل المحتوى العربي المرتبة السادسة عَشْرةَ بين اللغات العالمية.

يبدو للوهلة الأولى أن التعددية في مجتمع واحد تؤدي إلى تمزق المجتمع وتشرذمه، وإلى انكفاء أهل كل ثقافة عن الثقافة الأخرى. ولكننا نرى أن التنوع والتعدد إغناء للأحياء وزينة للحياة، بل هو ضرورة من ضرورات الحياة. إنها معيار ارتقاء الإنسان عندما يَقبَل الآخر فيتعايش معه.

وفي تاريخنا شواهد لا حصر لها على ظواهر التعددية. نرى مثلاً كيف أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عقد، عندما دخل القدس في ١٥هـ-٦٣٦م، ما يسمى العهدَ العُمريَّ الذي أكَّد فيه حرية التدين وحق الاختيار الديني ونَهْجَ التعددية. لقد قام الفاتحون بتجميع النُّفايات والقاذورات التي وضعها الرومان في مواطن العبادة، ثم حملوها في أرديتهم، فأعادوا بذلك الطهر والقداسة لأماكن العبادة.

وتنبَّه العديدُ من دول العالم على خطر العولمة على لغاتهم، لقد قال (هوشي مينه) الزعيم الفيتنامي: «لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى ثقافتنا القومية ولغتنا الأم..». والتفت إلى أبناء قومه يقول لهم: «حافظوا على صفاء لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم، حذار من أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكانٍ يمكنكم أن تستعملوا فيه لغة فيتنامية».

وسئل (كونفوشيوس) ذات مرة عما سيصنع بادئ ذي بدء إذا ما كُلِّف أمرَ البلاد، فأجاب: «إصلاح اللغة بالتأكيد»، ثم سئل: «لماذا؟» فانبرى قائلاً: «إذا لم تكن اللغة سليمة، فما يقال ليس هو المقصود، وإذا كان ما يقال ليس هو بالمقصود، فما يستحق الإنجاز لن يُنجز، وإذا لم يُنجَز ما يستحق إنجازَه، فإن الأخلاق والفنون يحلُّ بهما الانحطاط، وإذا ما انحطت

الأخلاق والفنون فالعدالة سوف تنحرف، وإذا ما انحرفت العدالة، فسوف يقف الناس مضطربين لا حول لهم. وعلى هذا ، يجب التخلي عن الاعتباط في القول، وهذا أمر يتفوق في أهميته على كل أمر».

ولقد أوضح الأستاذ التونسي الدكتور عبد السلام المسدي ذلك إذ قال: «إن وضع اللغة العربية في هذه المرحلة التاريخية وضع حرج جدًّا. فهناك حملة واسعة، تصاحب حملة (العولمة) الثقافية تتقصد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة. وفي مقدمتها الثقافة العربية. تتوسل هذه الحملات العدائية دائماً بالعامل اللغوي. وكثيراً ما تتعلل بأن العربية الفصحى لغة مفارقة للواقع الحقيقي، فتحاول أن تثبت في الوهم بأن لغة الواقع هي التي يجب أن تصبح اللغة الرسمية، وهذا معناه تحويلها إلى لغة تربوية، ثم إلى لغة إبداعية حتى يكتب بها الفكر، ومن هنا تتسلل المعاول الناسفة. أما المدى البعيد المنشود، فهو أن تلقى العربية نفس المصير الذي صادفته اللغة اللاتينية».

ويقول المسدي أيضاً: «الحقائق التاريخية الجديدة جَمعٌ ينسلك في واحد، ليس للعرب منها خياران، إنما هو خيار فريد. أن يُقَوُّوا جبهتهم الحضارية الداخلية التي هي جبهة الهوية بنهضة فكرية قوامها العقل الصارم، وساعدها المتين حرية الرأي والتعبير، والتواصل القائم على النقد المسؤول، ويُقَوُّوا جبهتهم الثقافية أيضاً، بأن يقودوا الوظيفة الفاعلة الجبارة التي تؤديها اللغة القوية، ولن يؤديها بديل آخر من البدائل على وجه القطع والإطلاق».

يوم اللغة العربية:

إضافةً إلى اليوم العالمي للغة العربية الذي قررته الجمعية العامة للأمم المتحدة، وإلى يوم لغة الأم الذي قررته اليونسكو، أصدرت الجامعة العربية

قراراً دعت فيه إلى الاحتفال باللغة العربية في الأول من آذار من كل عام.

جاء هذا القرار بعد أن لاحظت الجامعة العربية الأخطار التي تهدد لغتنا العربية وثقافتنا العربية، وبعد أن تعالت صيحات المفكرين والمثقفين العرب. واستجابةً لتوصيات المؤتمرات العربية ومجامع اللغة العربية وغيرها.. ولْنَذْكُرْ على سبيل المثال ما قاله عبد العزيز الرفاعي في دورة مجمع اللغة العربية في القاهرة شباط ١٩٩٢: «نحن العرب، ماذا بقي لنا كي نتماسك ولا نضمحل أو نتلاشى، ونذهب خبراً من الأخبار، ونذوب كما ذابت من قبلنا أممٌ فقدت شخصيتها السياسية؟ لم يبق لنا إلا اللغة، فقد تكالب علينا الغزو الثقافي من كل جانب، يعمل دائماً ليل نهار لكي يقوّض ارتباطنا بلغتنا، لغةِ القرآن، ويحوّلها إلى أمشاجٍ يسهل ابتلاعها، وتكييفها على النحو الذي يريد، وهو يدرك تماماً أنه إذا ما قوّض اللغة، فإنه يقوّض الدعامة الأساسية في كياننا، ويَسهُل عليه بعد ذلك أن يقوّض بعدها كل الدعامات الأخرى لِتنهار، واحدةً تلو الأخرى، وبذلك لن تقوم لنا قائمةٌ ولا تجمعنا رابطة».

وجاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية:

إن تحليل الشكل اللغوي كشف عن عددٍ من المصاعب تواجهها اللغة العربية في هذا العصر، وكلها تتصل أساساً ببطء النمو الفكري والاجتماعي العام الذي تعاني منه الأمة العربية، فقد ظلّ ارتباط الثقافة باللغة العربية قائماً وثيقاً في التاريخ كله، وخاصةً بعد الإسلام. وقد توافق نُضج الثقافة العربية وعطاؤها مع ازدهار هذه اللغة وتَفتُّحها، في عملية تبادلية من التأثر والتأثير. فلما انكمش ذلك العطاء، في القرون الأخيرة، انكمشت معه اللغة عن التطور والمشاركة في حياة العصر، حتى أصبحت في وطنها العربي تقترن

أحياناً بالتخلف الثقافي والفكري، في حين ارتبط الحَراك الاجتماعي مكانةً ودوراً باللغات الأجنبية، واستعمال هذه اللغات في التعليم العالي أحياناً، وفي الإدارة، والسياسة، والعلوم، والتقنية في عددٍ من البلدان.

أيها الحضور الكرام:

لا يكون للاحتفال بهذا اليوم أو ذاك أيُّ معنًى ما لم نسلِّط الضوء على حال موضوع الاحتفال نراقب الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية.. هل تقدمنا إلى الأمام أم ازداد الأمر سوءاً؟

من أجل ذلك سأطرح هنا بعض الحقائق تساعدنا على رسم الخُطا نحو المستقبل.

أولاً) من الصعب جدًّا أن ننظر إلى حال اللغة العربية دون النظر إلى الجوانب الأخرى الحضارية والعلمية والاقتصادية وغيرها.

ولقد أوضح ابن خلدون في مقدمته «أن المغلوب يتبع الغالب يقلِّده في كل شأن من شؤونه».

وأشار ابن حزم إلى هذا الأمر فقال: «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم.. فإنما يقي لغةَ الأمة وعلومَها وأخبارَها قوةُ دولتها، ونشاطُ أهلها، وأما من تَلِفَتْ دولتهم، وغلب عليهم عدوُّهم، فمضمون منهم موتُ الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، وهذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة».

وقال الدكتور قسطنطين زريق مرة: «إن المشكلة ليست في تخلف اللغة بل في أصحابها». وقال مصطفى صادق الرافعي: «ما ذَلَّت لغةُ شعبٍ إلا ذَلّ، ولا انحطت إلّا كان أمره في ذهاب وإدبار».

ثانياً) إن الاعتداء على اللغة العربية، ليس من خارج العرب، بل من

العرب أنفسهم أيضاً..

إنه مما لا شك فيه أن الدول التي استعمرت أجزاءً من العالم العربي عملت على إحلال لغتها بدلاً من اللغة العربية. لقد سعى الاستعمار الفرنسي للجزائر، على سبيل المثال، لِأنْ يمحوَ اللغة العربية من الوجود وكاد يفلح في ذلك، لولا الشعور الديني للجزائريين أو بعض الجزائريين.. لقد كانوا يحافظون على اللغة العربية بعيداً عن رقابة المستعمرين الفرنسيين، وذلك عن طريق حفظ القرآن الكريم.

قد لا نستغرب كثيراً صنع الدول المستعمرة، ولكن الأمر المذهل هو ما يفعله بعض العرب بلغتهم.. أليس غريباً أن يدعو أحد أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو عبد العزيز فهمي، إلى العدول عن الحروف العربية إلى حروف لاتينية، ويدعو إلى الاستغناء عن ضبط الحروف والكلمات بالشكل؟

أليس ما كان يقوله سلامة موسى حول اللغة العربية الفصحى: «إن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة للمستقبل، وإن الذين يتعلقون بالعربية الفصحى جَهَلةٌ وحمقى»، أمراً يحمل في طياته الرغبة في قطع العلاقة بين حاضرنا وماضينا، وفي الإساءة إلى وجودنا؟!

ثالثاً) إلى جانب أولئك الذين يهددون حصون اللغة العربية، هناك من انبرى للدفاع عنها والذود عن حياضها. فها هو المفكر العربي ساطع الحصري يؤكِّد أن اللغة العربية هي لغة متطورة حية، قابلة للنمو والازدياد، بل والمقاومة لكل الأخطار التي تهددها من أعدائها الأجانب ومن أعدائها من الأبناء العاقِّين. فهو يقول: «ليس لدينا أدنى شك بأن اللغة العربية ستتجاوز كل مشاكلها وتتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى، لتصبح لغة العلم كما هي لغة الأدب ولغة الشارع، كما هي لغة الكتب والمحاضرات المجمعية والعلمية».

ويقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون): «لِيَصْمُدِ العرب؛ لأن العالم بأمسِّ الحاجة إليهم وَلْيحترموا عربيتهم، هذه الآلةَ اللغويةَ الصافية، التي تصلح لنقل اكتشافات الفكر في الأقطار والأمصار كافة، وَلْيحافظوا على أصالتها، فلا تنقلبَ مَسْخاً مقلِّداً لِلُّغات الأوربية، أو تتخثرَ في حدودٍ ضيقة، شأن العبرانية الجديدة التي تخثرت في الصهيونية المتطرفة».

رابعاً) ينصرف الكثير من المشتغلين باللغة العربية إلى التركيز على الجوانب السلبية فيتحدثون عن ظاهرة التلوث اللغوي، وعن تفشي العامية، وعن ميل الشباب، في وسائل التواصل الاجتماعي وغيره، إلى الحديث بلغة أجنبية، أو استعمال كلمات أجنبية.. وغير ذلك، ولكنْ يحسُن بنا أن نتأمل في الجوانب الإيجابية.

أ- تسعى مجامع اللغة العربية لصُنع معاجمَ في مختلف العلوم للمصطلحات الأجنبية العلمية فتضع مقابلاتٍ عربيةً لها. فها هو مجمع اللغة العربية بدمشق قد فرغ من وضع بعض هذه المعاجم، وهو يتابع عمله في صناعة معاجم أخرى..

وكذلك يقوم مجمع القاهرة ببذل جهود في هذا الشأن..

ب- إن إصرار سورية على أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مراحل التعليم، ويشمل ذلك التعليم الجامعي ، كان له كبير الأثر في إبقاء اللغة العربية حية في جوانب الحياة المختلفة.

وتحاول الآن بعض الجامعات في العالم العربي الاقتداء بالتجربة السورية.

ج- عملت وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة تلك التي تُصر على نقاء العربية، وعلى الابتعاد عن اللهجات المحلية؛ عملت على

اقتراب العاميات بعضها من بعض، ويصب ذلك في مصلحة العربية السليمة.

د- يؤدي المجتمع المدني، من خلال جمعيات أهلية، دوراً هامًّا في حماية اللغة العربية لدى المواطنين.

ولقد قامت بعض الدول العربية بتشكيل لجان لتمكين اللغة العربية، وهذه لجنة التمكين في سورية مثلاً تبذل جهوداً كبيرة في معالجة التلوث اللغوي.

خامساً) لا بد من القول: إن ما تقدمه مجامع اللغة العربية وبعض الجامعات وغيرها من الأنشطة لا تكفي لمعالجة اللغة العربية، وغيرها من مظاهر التخلف العلمي والثقافي.. إن المعالجة الفعالة تبدأ في الأسرة والمدرسة والبيئة وأماكن العمل. إنها مشكلة إعداد المواطن الصالح المحب لوطنه ومواطنيه، مشكلةُ تحفيز الإبداع واستعمال العقل وإعادة النظر في علاقة المواطن بالآخر.

وقبل أن أختم كلمتي أتوجه إليكم وإلى أبناء أمتنا العربية، وخاصة شابّات أمتنا وشبابها لأقول: إنها أمانة في أعناقكم أن تدافعوا عن أغنى لغة في العالم، أن تُحسنوا تَعلُّمها، وأن تحاربوا كل تلوث يحرص البعض على إصابتها به كما يحرص على الحطّ من قيمتها؛ إنكم إذ تدافعون عن لغتكم فإنما تدافعون عن وجودكم وعن مستقبل الأجيال من بعدكم. لا تتهاونوا في التمكين لها، وتمتعوا بجمالها وسحرها، فالعبارة العربية كما يقول أحد المستشرقين: كالعود إذا نَقَرْتَ أحدَ أوتاره رنَّت لديك جميع الأوتار. وقال آخر: اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقاً، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها.

ولقد قال أحد الباحثين ما يلي: أوليس من أعجب العجب أن لغة العرب، وهي معجزة البشر، في سعة مفرداتها، وضبط قواعدها، وحسن اشتقاقها،

وغزارة أدبها، وأنها ولدت مع الدهر، فلم يدرك طفولَتَها التاريخ، ولم يعرفها الناس إلا كاملة، قد هجرها أبناؤها في بلادها، وصاروا جاهلين بها، وأن لغة الإنكليز، وهي لمامة من اللغات، ليس لها أصل العربية ولا شرف نسبها، ولا طهارة دمها وأنها لا ضوابط لها، ففيها حروف تكتب ولا تقرأ، وحروف تقرأ ولا تكتب، والحرف يُقْرأ في كلمة على غير ما يُقْرأ في كلمة أخرى - صارت بفضل وعي أبنائها وخدمتهم لها أوسع لغات العالم انتشاراً..

وَلْنسمع (سيغريد هونكه) وهي تقول: «كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلاد التي فتحوها سقطوا صرعى تلك اللغة».

إنكم إن لم تحملوا هذه الأمانة بجدارة فإنَّ اللغة العربية تقول لكم:

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عزّ الدواء أُساتي

أيُطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ... ينادي بِوأْدي في ربيع حياتي؟

* * *